

المدينة العربية في صقلية

العلوم الدينية

اسلفنا نقول في عناية أهل صقلية بالعلوم الدينية وأثرهم فيها وقد كانت لهم بغيرها من العلوم عناية تضارعها أو تزيد

﴿ الرياضيات ﴾ كانت للصقليين مشاركة في الرياضيات وكثير من علمائهم كان مهندساً ومنجماً فابو عبدالله محمد بن عيسى النقيه كان كاتباً وشاعراً ومهندساً وابو حفص عمر ابن الحسن اللقوي الشاعر كان مهندساً ومنجماً . وكان يرسل علماءهم الى خارج الجزيرة ليعيشوا في حاشية ملك غني قوي فالشيخ ابو محمد عبد الكريم الصقلي الفلكي عمل في المرصد الذي انشأه الطاهر بن عبد الله الصقلي الطيب الذي يجيد اللغة الاغريقية كان بالاندلس ايام الخليفة الناصر وسترى اثره في كتاب « ديستوريدس » عند الكلام على الطب

﴿ الطب ﴾ نبغ من الصقليين اطباء فطاسيون تركوا كتباً قيّمة في الطب منهم ابو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل الصقلي وكان طبيباً خبيراً بالمعالجات جيد التصرف في صناعته طب هشام المؤيد بالله الاندلسي . وقد فسر أسماء الادوية المفردة من كتب « ديستوريدس » وقال « ان هذا الكتاب حين ترجمه اصطنع بن بسيل ايام المتوكل لم يتم بيان الاسماء اليونانية بالعربية بل ذكر منها ما عرف وترك ما لم يعرف على اسمه اليوناني انكلاً منه على ان يمت الله بعده من يعرف ذلك ويفسره باللسان العربي . ثم اهدى ملك القسطنطينية ذلك الكتاب باللسان اليوناني الى الخليفة الناصر فطلب اليه ان يمت اليه خيراً بذلك اللسان فبعث اليه راهب يعرف اليونانية اسمه نقولا . وتألقت لجنة من اطباء قرطبة الباحثين كمحمد بن سعيد الطيب وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم وحداي الاسرائيلي ومحمد المعروف بالشجار وطبيب كان يعرف باليساس وابو عثمان الجزار وابو عبدالله الصقلي الذي كان يعرف اليونانية القديمة (المتقدم ذكره) ومعهم الراهب نقولا وصحبه ابن جلجل الصقلي ايام الحكم فصححوا أسماء المقابير تصحيح الوقوف على اشخاصها وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف وعلى ذلك التصحيح كان تفسير ابن جلجل الصقلي للادوية المفردة

ومن ألف في الطب من الصقليين أبو سعيد بن إبراهيم المغربي الصقلي مؤلف كتاب (النجاح في التداوي من صنوف الأمراض والشكاوي) وله في أوله كنية لا تزال جديدة أحب أن يسمها أطباؤنا قال «ثم إننا لما كانت طبائع الأمراض والأشخاص والأعضاء مختلفة لم تتم المداواة لكل مريض ولكل مرض ولكل عضو بدواء واحد معلوم إذ كانت في كل دواء من الأدوية قوى كثيرة مختلفة لا توافق المرض الواحد من جميع جهاته فيحتاج الطبيب لذلك إلى أدوية كثيرة مختلفة المزاج والقوة نافعة من مرض واحد ليختار منها الأليق لمرضه والأصلح لمقصده بحسب ما يراه من الأسباب الحاضرة الخ ما قال. ومن المؤلفين في الطب أحمد بن عبد السلام الشريف الصقلي صاحب كتاب «الاطباء» في الأمراض من الفرق إلى القدم ذكر فيه أجزاء البدن جزءاً جزءاً وما يعتري كل جزء من المرض ودوائه ﴿الجغرافيا والرحلات﴾ كان لهم من الجد في طلب العلم ما قدمنا وصفه فرحلوا إلى تونس وسائر المغرب والأندلس ومصر والشام. وقدمنا خبر رحلة الشيخ المعروف بالتركي النحوي الصقلي إلى بغداد وخراسان والهند. ومن أرحم منهم ودخل البلاد وكتب عنها العابد أبو بكر عتيق ابن علي بن داود المعروف بالمتقاري أحد عباد الجزيرة المجتهدين وزهادها العاملين كسافر إلى الحجاز وساح في البلدان فدخل اليمن والشام وأرض فارس وخراسان ولقي من بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد فكتب عنهم جميع ما سمع وله في دخول البلدان ومقاومة الطغاة كتاب بناء على حروف المعجم وله في أخبار الصالحين كتاب كبير وله في الفقه والحديث تأليف حسان وتوفي سنة ٤٦٤ هـ. فهكذا الزهد والتعبيد

لا سائر اليوم من ضرور الجميل والحماة

ومن سقيلة وعلى يد مسلميها أيضاً وصلنا أنفس أثر جغرافي للعرب وإن كان ذلك يعد شرط دولتهم بها وذلك كتاب «زهة الشتاق في اختراق الآفاق» للشريف أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المولود سنة ٤٩٣ هـ. وقد استقر أخيراً في بلاط ريجار الثاني (روجر) النورماندي الذي سلك طريق ملوك المسلمين من اتخاذ الجنائب والحجاب والسلاحية وغير ذلك وخالف عادة الأفرنج واتخذ ديواناً للظالم ترفع إليه شكوى المظلومين فينصفهم ولو من ولده. وأكرم المسلمين وقربهم وكان ريجار هذا ذا قلب شديد بعلم الجغرافيا ولم تشغ

الكتب التي كانت اذ ذاك غليلة فاحضر العلماء المتجورين فسألهم عنها فما اتفق فيه تولم وسبح في جمعهم نقلهم أثبتة وابقاه وما اختلفوا فيه القاء وأزجاء وكان فيمن دعا من العلماء علنا العربي الشريف الادريسي ثم اراد ان يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم فاحضر لوح الترسيم « خريطة » واقبل يفتنرها بمقاييس من حديد مع نظره في الكتب وترجيحه بين أقوال مؤلفيها حتى وقف على الحقيقة فيها فامر ان يترخ له من الفضة الخالصة دائرة مفضلة عظيمة الحجم ضخمة الحجم في وزن ٤٠٠ رطل بالروي في كل رطل منها ١١٢ درهماً فلما كملت أمر الفعلة ان ينقشوا فيها صور الاقاليم السبعة ببلادها واقطارها وسيفها وريفها وخلجانها وبحارها وبحاري مياها ومواقع انهارها وعمرها وغارها وما بين كل بلدين منها وبين غيرها من العرقات المطروقة والاميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المروفة ممثلاً في لوح الترسيم ولا يفادر منه شيئاً الا اتوا به على هيئته وشكله كما رسم له ، وامر ان يؤلف كتاب مطابق لها في اشكالها وصورها غير انه يزيد عليها بوصف اطوار البلاد وخلقها وبقاعها واجناس نباتها وخواصها والاستعمالات التي تستعمل بها والصناعات التي تنفق فيها وخلقهم ومذهبهم وزيهم الخ وامر ان يسمى هذا الكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وتم له ذلك على يد الشريف ويقولون انه صنع لبحار أيضاً عدا الكرة الارضية كرة اخرى مساوية. وقد نقل الاستاذ احمد زكي باشا نسخة كاملة من هذا الكتاب بالفوتوغراف بخرائطها ورسومها وهي في جملة الكتب النادرة التي قررت وزارة المعارف طبعتها احياء لآداب اللغة ولم يتم ذلك حتى الآن. وقد ظل هذا الكتاب بخرائطه معتمد الافرنج في علم الجغرافيا اجيالاً طويلاً لاسيما عن البلاد الشرقية . فقد رسموا خرائطه وترجموها الى اللسان وتناقلوها

﴿ التاريخ ﴾ اما التاريخ فقد نال من عنايتهم نصيباً فتركوا كتاباً في تاريخ جزيرتهم كتاب تاريخ صقلية لابي انقاسم علي بن جعفر المشهور بابن القطاع . وكتابه في تراجم شعرائها وهو المعروف بالدرة النخعية في المختار من شعراء الجزيرة . وفي تاريخ غير صقلية ككتاب القاضي ابن حمد يس الشاعر السابق ذكره في تاريخ الجزيرة الخضراء بالاندلس

ومن نبياء صقلية المفلوكين ابو عبدالله محمد بن ابي محمد بن محمد بن ظفر وكان

مولده بصقلية ونشأته بمكة وتنقل في البلاد اذ رحل صغيراً في طلب العلم فدخل بلاد المغرب ولقي ابا بكر الطرطوشي بالاندلس ولقي علماء افريقية ولقي بالاندلس ابا بكر بن العربي و ابا مروان الساجي و ابا الوليد اللداعي و ابن مسره و عاد الى صقلية ثم سافر منها الى انشام و سكن آخر الوقت حماة و فيها مات سنة ٥٦٧ هـ . و قيل انه زوج بنته في حماة بنير كفة من الحاجة و الضرورة فرحل ازوج بها عن حماة و ياتها في بعض البلاد . وكانت له و هو بين انياب البؤس جولات في ميدان العلم فصنف سباً و عشرين كتاباً منها كتابه المعروف « باتياء نجباء الالباء » و هو كتاب تاريخي ادبي يشتمل على احاديث عن نشأة كثير من مشهوري الرجال و نوادر طفولتهم و تكميل بعض النقص في كتب الوفيات بحديثه عن هذا النهج من حياة المظالم و قد طبع في مصر . و كتاب « سلوان انطاع في عدوان الاتباع » شرح فيه قوانين الحكمة و نوادر من اخبار السلاطين على لسان انطويور و الروحوش و قد ترجم الى الفارسية و التركية و طبع في مصر و تونس و بيروت و فلورنسا و لندن وله عدا ذلك كتب كثيرة و حسبنا ذلك من حديث العلم و النظر

الحياة العاملة

و لترسم للقارىء صورة من الحياة العاملة من زراعة و تجارة و صناعة و ما الى ذلك . و قد سبق القول بان فنوح الاسلام بالمغرب ظهر قائميرها في صقلية بتزول من قر من اهل المغرب اليها فلما ازداد المسلمون ازدادت عمارتها و اتسعت رفاهيتها و ازدحمت مدنها بالسكان فكان بالخالصة « وهي ريبض بلرم » فوق المائة و الخمسين ذكناً لبيع اللحم و كان بها مسجد جامع يسع سبعة آلاف رجل و تيفاً و بالمدينة من المساجد تيف و ثلثماية مسجد قال ابن حوقل « و لقد كنت واقفاً ذات يوم بها في جوار دار ابي محمد القفصي الوثائقي فرأيت من مسجد في مقدار رمية سهم نحو عشرة مساجد يدركها بصري و منها شيء نجاه شيء و قد سألت عن ذلك فقيل لي ان القوم بشدة انتفاخ رؤوسهم كان يحسب كل واحد منهم ان يكون له مسجد مقصور عليه لا يجب ان يشركه فيه غير اهله و حاشيته و ربما كان اخوان منهم متلاصقة دارها متماقبة المحيطان فعمل كل واحد منها مسجداً لنفسه » و نحن لا نذكر هذا لفتح أو حسن من حيث ائتلاف القلوب لكننا نعتبر به الحالة التي تسع باقامة المساجد للعائلات بهذه السعة كانت مدتهم و كانت على ما يرجح من النظام مفروشة اسواقها

بالحجر وبها أسواق للزراعتين والتصيارفة والتصيدلة والخزازين والصياقلة والخطمين
وأسواق للقمح وبها الكثير من الحمامات والعيادات

﴿ الزراعة ﴾ كانت الجزيرة خصبة بها من المواشي والرفيق وانصلاح للزراع
ما تفضل به ساثر مدن الاسلام المتاخمة للبحر ولقيت قوماً أولي عزائم فبادرت
ودرت وكثرت بمساكنها وكرومها واستغنت بهما الكتان والفسطل والشاه بلوط
واللوز والتين والخروب والنتفاح والاحاص . وبها انقصب الفارسي وفي خلال
اراضيها بقاع قد غلب عليها البربير (البردي) الذي قال ابن حوقل عنه ولم أعم له
عصر من هذا البربير نظير بوجه الارض الا ما بسقلية واكثره يقتل حبلاً
لمراكب « تحاط بها وتقاد » واقه يعمل منه للسفطان طوامير . وكانت تزرع بها
الحناء وتصدر الى الخارج وكان يستنبتون بالجمال غلات يستمدون منها الخشب لصنع
المراكب وازدادت عنايتهم فلم يهملوا سهلاً ولا جبلاً يصلح للمارة فذكروا ان بها
جبلاً يسمى جبل القلال كان خرباً وفيه مياه وارض فوقه اليد قوم من المسلمين
معمروه ولن يقموا الى الجبل وفي السهل متسع

﴿ الصناعة ﴾ واما الصناعة فقد تقدمت مع ذلك فكان ينسج القطن في صقلية
ويستخرج منها الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزئبق والحديد والشب والكحل .
وكان الذهب بها كثيراً . اما الحديد فكان يعضه يعرف في المراكب والبعض يصدر الى
الخارج لاسيا من مناجم ميني . وكان بها دار صناعة لبناء السفن في (الخالصة)
ربض بلرم وقد عرف أهلها استعمال تيار الماء في ادارة الآلات وكثير في الكتب
العربية ذكر الارحية الطاخنة التي تديرها المياه أثناء وصف أنهار صقلية . وكانوا
يصنعون الورق من البردي كما سبق . واستخراج هذه المعادن والانتفاع بها يحتاج
الى ما تعرف من العلوم والخبرة

﴿ التجارة ﴾ واما التجارة فانهاتتبع النفوذ السياسي وحسن المواصلات والسلمون
لهذا العهد قد تطلبوا على الاكثر من لجة بحر الروم وسارت اساطيلهم فيه جائية ذاهبة
والعساكر الاسلامية تجوز البحر فيها من صقلية الى البر الكبير « شاطيء اوربا
الجنوبي » فتوقع بملوك الفرنجة وتمخض في ممالكهم . وانحازت لهم اوربا باساطيلها
الى الجانب الشمالي الشرقي منه لا يمدون واساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء
الاسد على فرستو . وأمنت طرق المواصلات باقامة الحصون والمخارص على ساحل

البحر حتى كانوا يرقدون النار من سبته فيتعمل الخبز الى الاسكسورية في ليلة واحدة . هذا وفي الجزيرة الخشب والامراس وموانب منظمة ومراس محكمة وأحواض للسفن وارسفة فكان بمدينة مسيني مرسى ترسو به السفن العظام ووراء ذلك شعب جاد يعول حكمه ويتجر علماؤه فلا يحب اذا جد عامته وصناعه . وكان يصدر من الجزيرة الحديد وما يصنع من انقطن والحناء والثين واللوز الناشف والخرنوب وكثير من السمك التي كانت معاينه بالجزيرة متعددة ومنه نوع كبير يسمى (الن) يتجهز بهذا الى شواطئ المغرب القوية وبلاد الروم وما وراءها من أوروبا وتحمل منها اطعام من المواد الاخرى ويقطع في داخل البلاد تلك الاسواق الكبيرة الكثيرة المنتظمة كما وصفنا

هذه حضارة المسلمين في صقلية . وقد ظلوا دعامة الحضارة والعلم بها حتى بعد سقوط دولتهم فكان سلطانها ربحار كثير الاستعمال للمسلمين والآنفاذ للفتيان من المجاييب وكلهم او اكثرهم كآم ايمانه متمسك بدينه . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم حتى كان الناظر في مطبخ ربحار رجل من المسلمين ووزراؤه وحجابه الفتيان وله جملة كثيرة هم أهل دولته وهو يتشبه في ترتيب قوائين الملك ووضع أساليبه وتقسيم مراتب رجاله واظهار زينته بملوك المسلمين وكان يقرأ ويكتب بالعربية وشعاره عربي كما كان شعار أيمة كذلك قبله . وسكن اليه من طابقت نفسه بالمقام في صقلية من علمائها فكان حواريه الاطباء والنجدون والمهندسون والجنرافيون من العرب « كما سبق » ومن بقي بها من العامة كانوا عماد الملك والقسم الحقي من الامة فبقيت لهم مساجدهم ومزارعهم واسواقهم المختصة بهم حتى كانت الاسواق في حاضرة صقلية بعد قرن من سقوطها معمودة بهم وهم التجار فيها وحتى كان زيم النصرانيات في بلرم كزي نساء المسلمين ملتحنات متنقيات حاملات جميع زينة السلطات من التحلي والتخضب والتعطر وظلت الجزيرة تحفظ الاسماء العربية كقصر جعفر وقصر سعد ومرسى عني . لكن ذلك لا يطول مكثه وفوقه علم للتغير خفاق وسلطان منبسط وملك مستوسق والارض تبطل الضيف والجن تحنطه والسما ترميه وشهها فلا عجب ان تصبح صقلية « سيليا » كما كانت وان بقي بها من الآثار الخالدة ما حدث عنه الدكتور لويجي رينالدي ويحدث عنه المنصفون دائما امين الحولي المدرس بمدرسة القضاء الشرعي